الخالدي حياته و أثرها في تكوين شخصيته العلمية والمقارنية

رماش عائشة
قسم .اللغة العربية وآدابها –
جامعة باجي مختار – عنابة

إن الغاية من هذا البحث ليس وضع دراسة تهتم بذكر التفاصيل المتعلقة بمختلف أطوار حياة المؤلف ، و لا يراد منها رصف معلومات جديدة متعلقة بترجمة المؤلف نظرا إلى استيفاء أصحاب الدراسات السابقة – و خاصة منهم : الدكتور : ناصر الدين الأسد في كتابه " محمد روحي الخالدي ، رائد البحث التاريخي الحديث في فلسطين " – هذا الغرض، و إنما الهدف هو عرض هذه المعلومات بطريقة تسمح لنا بإبراز واستخلاص بعض الإستنتاجات الهامة التي تتعلق أساسا بتفكيره و حسه المقارني .

1 – إسمه ونسبه

إن أول شيء يعترضنا و يفرض نفسه علينا في هذه الترجمة هو ذلك الإختلاف الواضح بين الدارسين في قضية النسبة أولا، و نقصد نسبة "الخالدي "، هل هو نسبه الحقيقي أم هو نسبة وضعها الدارسون ؟...وفي قضية الإسم نفسه ثانيا ، هل هو "محمد روحي " أو "روحي" دون محمد؟...

بهذا و أمام هذا التساؤل يصبح لزاما علينا أن نبحث في هذه القضية لإماطة اللثام عنها ولو بشكل يسمح لنا بالوقوف عند الإسم و النسب الحقيقي لهذا الرجل ، فمن يكون يا ترى ؟

لقد أجمع النسابون على أنه" محمد روحي بن ياسين بن محمد بن علي بن محمد بن خليل بن صنع الله بن خليل بن شرف الدين بن عبد الله بن طه بن صالح بن يحي بن نجم الدين محمد بن زين الدين عبد اللطيف بن شمس الدين محمد بن شمس الدين محمد بن عبد الله بن سعد بن أبي بكر بن مصلح بن أبي بكر بن سعد بن عبد الله بن مصلح بن الديري [1]

وقد عرفت أسرة " محمد روحي" بهذه النسبة " الديري" أمدا طويلا، وهي اسم لقرية بالقرب من " مردى " من قرى نابلس إلى أن استبدلت أخيرا بلقب آخر وهو "الخالدي"، وسقط بالتالي النسب القديم " الديري".

و السؤال الذي يتبادر إلى الذهن هو : ما هو مصدر هذا النسب ؟ و متى أصبحت أسرةالديري تعرف بهذا اللقب :" الخالدي" ؟

ربما يقول قائل أن هذه النسبة أتت من اسم أحد أجداده الذي يفترض أن يكون "خالدا "، إلا أن الشيء الذي يدفعنا إلى تفنيد هذا الزعم هو تأكدنا من عدم وجود من اسمه خالد من أجداد الخالدي في جميع نسب هذه الأسرة .

وقد يذهب آخر إلى إرجاع هذه النسبة إلى خالد بن الوليد كما فعل روحي الخالدي نفسه في سيرته التي كتبها لنفسه، ونشرت في جريدة الأصمعي بيافا سنة 1908؛حيث ذكر أن الأسرة تنتسب إلى خالد بن الوليد ، وقد شاع ذلك بين العرب و المستشرقين على السواء .

إلا أن هذا أيضا لا يمكن إقراره ؛" إذ أنه كان معروفا للنسابين الثقات منذ القرن الثاني الهجري أن عقب خالد بن الوليد قد انقرضوا جميعا، و لم يبق منهم أحد ".[2] وقد صرح المصعب بن عبد الله في كتابه " نسب قريش" بهذا أيضا حين قال : "لقد انقرض ولد خالد بن الوليد، فلم يبق منهم أحد، وورثهم أيوب بن سلمة دارهم في المدينة".[3]

وقد تعرض ابن حزم (384 – 456 هـ) أيضا إلى هذا في كتابه "جمهرة أنساب العرب " فقال :"وكثر ولد خالد بن الوليد حتى بلغوا نحو أربعين رجلا، وكانوا كلهم بالشام، ثم انقرضوا كلهم في طاعون وقع فلم يبق منهم عقب"[4].

بهذا يمكننا تفنيد الرأي الثاني الذي يعتبر أسرة محمد روحي من نسل خالد بن الوليد لما أثبته النسابون من انقراض نسل هذا الأخير.

بقي أن نذهب مذهبا أخيرا، وأظنه أقرب إلى الصواب في تفسير هذه التسمية، وهو أنهم ينسبون إلى مكان يعرف " بالخالدية "، وقد ذكر حسين فخر الخالدي قبل وفاته أنهم أصلا من العراق من جهة الموصل – وفي الموصل قرية تسمى " الخالدية"، يقال إن الخالديين : محمد بن هاشم بن وعلة وأخوه سعيد بن هاشم منسوبان إليها.[5]

"ومهما يكن من أمر هذه التسمية، فإن الثابت أن هذه الأسرة خلال القرون الثلاثة الأخيرة أسرة "الخالدي"، كانت تعرف في تاريخنا العلمي "بالديري" ، وأنها كانت قبل القرن الثامن الهجري تستوطن قرية "الدير" بالقرب من " مردى" من بلاد نابلس وإلى قرية "الدير" نسبت هذه الأسرة، وأن أول من انتقل منها إلى بيت المقدس واستوطنها، وأنجب ذريته فيها هو " قاضي القضاة شمس الدين محمد بن عبد الله بن سعد ابن الديري" المولود في نحو سنة 750هـ والمتوفى سنة 867هـ ، فأصبح أبناؤه و حفدته بعده إلى يومنا هذا ينسبون إلى بيت المقدس، وهي أسرة جليلة معروفة بالعلم، تولى كثير من رجالها مناصب القضاء و الفتيا والتدريس في القدس و مصر خاصة"[6].

ومما يمكن تسجيله أن هذا الإختلاف لم يشمل لقب "الخالدي " فحسب، بل نجده قد تعدى إلى اسم المؤلف ذاته، وقد لمسنا هذا الإختلاف خاصة بين د.ناصر الدين الأسد، و د. حسام الدين الخطيب ؛ حيث انتقد هذا الأخير د. ناصر الدين الأسد في كتابه "محمد روحي الخالدي ، رائد البحث التاريخي الحديث في فلسطين" لعدم تقصيه عن الإسم الحقيقي للمؤلف كما فعل مع أحد أجداده ، وصرح أن الإسم الذي يجب أن يثبته هو "روحي الخالدي"دون" محمد " قائلا : "و الغريب أن أستاذنا الفاضل يدقق تدقيقا شديدا في تسمية جد روحي هل هو محمد علي أم محمد بن علي، و يبدي دقة علمية فائقة – على عادته – و لكنه لا يدقق في تسمية المترجم له نفسه، فيسميه في العنوان "محمد روحي"، وفي بعض المواضيع في الكتاب مع العلم أن الإسم الصحيح هو "روحي" كما هو مثبت في كتبه.[7]

أمام هذه المفارقة ، وجدنا أنفسنا مضطرين إلى التقصي عن الإسم الحقيقي للمؤلف الذي يعتبر محور دراستنا، فاتصلنا بالدكتور ناصر الدين الأسد باعتباره من المهتمين بهذه الشخصية، نسأله عن هذه القضية، و كان رده مقنعا إلى حد بعيد، هذا نصه: "وليس هذا اختلافا حقيقيا، وإنما هو اختلاف متوهم، بذل فيه بعضهم جهدا لا طائل من ورائه و لا نفع فيه، وأساس هذا الموضوع أنه شاعت في بلاد الدولة العثمانية بعض الأسماء المركبة مثل " مصطفى كمال " و"مصطفى فهمي" و " أحمد شوقي" و" محمد روحي" إلى غير ذلك من أمثلة تفوق الحصر ، وإضافة "مصطفى " أو " أحمد " هي للبركة لأنها من أسماء رسول الله – صلى الله عليه وسلم –، وكانت تثبت في شهادات الميلاد، و يدرج الإسم كاملا في المناسبات و المواقف الرسمية – ولكنها تحذف في الإستعمال اليومي، وحين النداء و التخاطب بين الأصدقاء و الأهل فلا ينادي الصديق صديقه، ولا الأخ أخاه بقوله: "يا مصطفى كمال"، ولكنه يناديه بقوله: "يا كمال". وقد حذفت كلمة "مصطفى" من الإسم المركب "مصطفى كمال أتاتورك" في المرحلة الثانية من حياة الرجل فأصبح يعرف باسم "كمال أتاتورك" في المكاتبات الرسمية، وكذلك تجد أمير الشعراء " " أحمد شوقي " يحذف كلمة " أحمد " في بيت قاله مداعبا نفسه حين رزقه الله بابنه "علي"، و البيت هو :

صار شوقي أبا علي في الزمان الترللي[8]

و يبدو أن تفسير د. ناصر الدين الأسد مقنع ، خصوصا و أن الدليل الذي استند إليه د.حسام الدين الخطيب دليل واه يمكن أن يرد عليه انطلاقا من هذا التفسير لظاهرة الأسماء المركبة في العهد العثماني، و هي ظاهرة لا زالت بعض مظاهرها مستمرة حتى وقتنا هذا.

إن محمد روحي الخالدي كان يكتب اسمه كاملا على بعض مقالاته و كتبه ، مثل " رسالة في سرعة انتشار العالم المحمدي و في أقسام العالم الإسلامي" ، فقد ذكر على الغلاف بعد هذا العنوان مايلي : " و هما نبذتان من الدرس القونفرانس (يقصد محاضرتين في مؤتمر) الذي ألقاه حضرة الكاتب الفاضل و الحسيب النسيب الكامل السيد محمد روحي الخالدي المقدسي في دار الجمعيات العلمية في باريس ونشرنا في جريدة طرابلس الشام ."[9]

وكذلك نجده قد استعمل اسمه كاملا على غلاف كتابه " أسباب الإنقلاب العثماني و تركيا الفتاة ، أصدق تاريخ لأعظم انقلاب "، فقد ذكر تحت هذا العنوان ما يلي : " تأليف الكاتب السياسي و الأديب الألمعي محمد روحي بك الخالدي "[10]. ثم أخذ الخالدي نفسه يسقط كلمة " محمد " من أول اسمه ويكتفي بذكر" روحي الخالدي"؛ إذن فالكتب التي استند إليها " حسام الدين الخطيب " للتدليل على ما يقول هي نفسها التي تنفي ما صرح به.

وما ذكره " ناصر الدين الأسد " عن الأسماء المركبة و إسقاط الإسم الأول، يصدق تماما على مؤلفنا " محمد روحي الخالدي " و أعتقد أن هذا أمر شائع بين العام والخاص، وبهذا لا يحتاج الموضوع إلى أن يستشكل فيه مستشكل .

2 – نشأته و مراحل دراسته:

ولد محمد روحي الخالدي [11] في مدينة القدس يوم الجمعة خامس صفر سنة 1281 هـ الموافق ل 1864م في محلة السلسلة. والمتصفح لحياة الخالدي يجد أن حياته كانت كلها مضطربة قضاها في تنقل و ترحال دائمين مع والده أحيانا أو عمه أحيانا أخرى ، من خلال هذه الرحلات استطاع الخالدي أن يزور بيروت وطرابلس الشام بعد أن تلقى مبادئ العلوم الأولى في بلده. و في سنة 1880 اصطحبه عمه عبد الرحمن نافذ أفندي الخالدي معه إلى الأستانة، هناك انبهر الخالدي بأنواع العلوم التي كانت تقدم ، والتي لم يسبق له و أن عرفها في بلاده ، كما التقى هناك بشيخ الإسلام " عرياني زادة أحمد أسعد أفندي" الذي تنبأ له بمستقبل زاهر لما لاحظه عليه من ذكاء و فطنة، ومنحه لقب "قدوة العلماء المحققين "، وهي أول درجة في سلم المراتب العلمية و التي مكنته من الإشتغال بالتدريس في إحدى مدارس الأستانة و عمره لا يتجاوز السادسة عشر.

عندما عاد الخالدي إلى مسقط رأسه التحق بدروس المسجد الأقصى ثم بمدرسة الأليانس ، فمدرسة الرهبان البيض (الصلاحية)، وسميت بهذا الإسم الصلاحية نسبة إلى صلاح الدين الأيوبي ، الذي أقام دعائم هذه المدرسة قبل أن يمنحها السلطان العثماني إلى فرنسا التي عمرها رهبانها. [12]

وبهذا استطاع الخالدي أن يظفر بنوعين من التعليم ، العربي في المدارس الحكومية و المسجد الأقصى ، **والفرنسي في مدارس الإرساليات** التبشيرية (الأليانس،الرهبان البيض). وبذلك أتقن اللغة الفرنسية التي كانت لغة التعليم هناك .

لقد ظل الخالدي يطمح إلى المزيد من العلم و المعرفة و يصبو إلى ما هو أعلى من التعليم، فكانت قبلته بعد ذلك بيروت، أين التحق بالمدرسة السلطانية التي كان يشرف عليها الشيخ حسين الجسر، فبقي يغترف من معينها إلى حين غلقها.

لم يكتف الخالدي بما اقتناه و حصله من علم، بل ظل عنقه يشرئب إلى المزيد، فكانت وجهته هذه المرة : الأستانة رغم الإغراءات الوظيفية التي عرضت عليه إلا أنه فضل استكمال تعليمه العالي ، فالتحق بالمكتب الملكي الشاهاني سنة 1887، وقضى فيه ست سنوات نال في نهايتها شهادته سنة 1893هـ .

وفي الأستانة استطاع الخالدي أن يلتقي " بجمال الدين الأفغاني" عن طريق المجالس العلمية التي كان يقيمها هذا الأخير .

وظل الخالدي ينتقل بين القدس و الأستانة متقلدا مناصب عديدة لم تكن ترضي طموحه ، لأنه كان يطمع فيما هو أعلى ، لذلك و بحثا عما هو أسمى ، سافر إلى فرنسا عله يظفر بما يريد هناك، إلا أنه لم يلبث طويلا ،فقفل راجعا إلى الأستانة ــ لأن رحلته هذه كانت رحلة استكشافية استطلاعية ــ أين كثرت العيون عليه و زاد حساده ، بسبب انفتاحه و نزعته إلى الحرية ، وتردده على مجالس جمال الدين الأفغاني ، " فقد حضر أحد هذه المجالس مكاتب جريدة " التايمس" فدار

معه حديث أوصله الجواسيس إلى السلطان ، فاشتدت المراقبة على الذين حضروا المجلس"[13] عندها لم يجد الخالدي بدا من الفرار إلى فرنسا حيث استطاع أن يحقق طموحاته العلمية ، فدخل مدرسة العلوم السياسية وأتم دروسها ، ثم درس فلسفة العلوم الإسلامية و الشرقية في جامعة السربون على يد أساتذة ذكرهم في مؤلفاته نذكر منهم :

- الأستاذ رامبو Rambo : درس الخالدي في مدرسة العلوم السياسية كما درسه أيضا في السربون و هو مؤرخ إضافة إلى أنه وزير للمعارف.
- الأستاذ ألبير فراندال Albert Ferandele: درسه فلسفة العلوم الإسلامية و الآداب الشرقية
- الأستاذ ألبير سورل Albert Sourlt : لقبه الخالدي بشيخ التاريخ السياسي.
- الأستاذ ليفاسور Levasseur : العالم الشهير بعلم الإحصاء .
- الأستاذ هارتويغ ديرنبورغ Hartouig Derenbourg : كان يلقي دروسا في اللغة الحميرية .

بعدها عين الخالدي مدرسا في جمعية نشر اللغات الأجنبية أين استطاع أن يتعرف على مجموعة من علماء المشرقيات ، اعترفوا به أديبا و عالما مقتدرا وأشركوه في ندواتهم و محاضراتهم ، وقبلوه عضوا في مؤتمر المستشرقين المنعقد سنة 1897 .

لقد ألقى الخالدي العديد من المحاضرات باللغة العربية مساهمة منه في المؤتمر نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر،المحاضرتين اللتين شارك بهما في"دار الجمعيات العلمية " بباريس .

المحاضرة الأولى ، كانت سنة 1896 عن " الإسلام في هذه الأيام " التي اهتمت بها الصحف العربية كثيرا بعد أن نشرتها جريدة "طرابلس الشام" واهتمت بطبعها في كتاب مستقل بعنوان: "رسالة في سرعة انتشار الدين المحمدي ، وفي أقسام العالم الإسلامي". أما الثانية ، فألقاها سنة 1897 عن المسألة الشرقية و قد لاقت هذه المحاضرة ترحيبا كبيرا عند الغرب و العرب على السواء ، فنشرت في الصحافة العربية عدة مرات ثم طبعت في كتاب بعنوان : " المقدمة في المسألة الشرقية منذ نشأتها الأولى إلى الربع الثاني من القرن الثامن عشر.[14]

لقد استطاع الخالدي بشخصيته الفذة و تبحره الواسع في مختلف العلوم والآداب أن يأسر قلوب الفرنسيين و العرب على السواء ، لذلك اختارته السلطة العثمانية ، لأن يكون قنصلا لها في" بوردو" و توابعها ، ثم انتخب رئيسا لجمعية القناصل في تلك المدينة .

وظل الخالدي يمثل منصب قنصل عام لمدة عشر سنوات ، نشر خلالها دراساته ومقالاته و بحوثه في الصحف العربية بتوقيع المقدسي إلى حين إعلان دستور سنة 1908 ، انتخبه أهل القدس نائبا عنهم في مجلس النواب العثماني " المبعوثان "، لكنه ما لبث بعد أن حل المجلس سنة 1912 أن رجع إلى القدس ، ثم كر راجعا إلى الأستانة أين أصيب بوباء التيفويد الذي لم يمهله سوى أربعة أيام . و كانت وفاته سنة 1331هـ ، الموافق ل6 اغسطس 1913 م عن عمر يناهز 50 سنة .

لقد ترك الخالدي في نفس كل من احتك به وعرفه أثرا طيبا يشهد له بالعبقرية و طول النفس على تحمل الصعاب في سبيل تحصيل علمي جيد ، مكنه من الوقوف عند أهم المناهج الحديثة و المعارف والفنون الجديدة التي انتشرت في تلك الفترة في أوربا ، كما مكنه من الأخذ بزمام اللغة الفرنسية و التركية والفارسية إلى جانب العربية ، واحتك بالحياة الثقافية و الإجتماعية في فرنسا مدة إقامته هناك، فلا غرو إذن أن يكون نتيجة هذا الإحتكاك تلك الدراسات و المقالات التي ذاع صيتها في أوساط أوربا و الدول العربية ، والتي استطاعت أن تجلب إعجاب الكثيرين من علماء فرنسا ، كان نتيجته أن قلد أرفع الأوسمة ، واعترف به أديبا فذا له أفضال كثيرة على الثقافة بما أنتجه من مؤلفات دلت على قيمته العلمية.

هذا بالنسبة إلى الغرب ، أما العرب فيمكننا إدراج اعتراف جرجي زيدان بقيمة هذا الكاتب ، والذي نشره في مجلة الهلال حيث يقول : "و قد عرفنا أيضا من نوابنا أرباب القلم في مجلس المبعوثان صديقنا روحي بك الخالدي صاحب مقالة " الإنقلاب العثماني " في هذا الهلال ، ويكفي الإطلاع عليها لمعرفة سعة علمه في أحوال الدولة و دخائل سياستها ، وقد عرفه القراء من قبل باسم المقدسي كذلك سمى نفسه في كتابه " تاريخ علم الأدب " الذي نشره على حدة ، عبر مقالاته العديدة في المواضيع المختلفة ، وكلها أبحاث جليلة تدل على علم واسع و نظر صحيح مع إخلاص في البحث ، وكان القراء قبل أن عرفوا اسمه يعجبون بعلمه وفضله ، ويسألوننا عن حقيقة اسمه ، ولم يأذن لنا بإذاعة ذلك ، لأنه كان قنصلا جنرالا للدولة العلية في بوردو بفرنسا ."(15)

أمام هذا الإعتراف ، وأمام هذا الإطراء من الجانبين العربي و الغربي لا يسعنا في هذا البحث إلا أن نعترف نحن أيضا بفضل هذا الرجل و قيمته العلمية وعبقريته الفذة، هذه العبقرية التي لم تنشأ من العدم حتما بل ساهمت في تكوينها عدة عوامل أهمها : الدور الذي لعبته أسرته العريقة ، ومنصب والده (قاضيا) من جهة، ودور شيخ الإسلام الذي حثه على مواصلة التعليم من جهة ثانية . فقد ساهم انتماؤه الإجتماعي و مكانة أسرته الإجتماعية في فلسطين بقسط كبير في تكوين شخصيته العلمية و المقارنية ، حيث انتسب الخالدي كما رأينا إلى عائلة عريقة مشهورة بالعلم ، تقلد أفرادها عدة مناصب سامية لدى الدولة العثمانية ، هذه كلها

أسباب تؤهل الخالدي لأن يظفر بتعليم جيد، فقد كانت الأسر العريقة يتوارث أفرادها مناصب القضاء و العلم في هذه البلاد؛ لذا كانوا حريصين على تنشئة أبنائهم نشأة علمية و دينية تؤهلهم لتولي المناصب و وراثتها، كما كانوا يحرصون على تكوين مكتبات عظيمة تضم الكثير من نفائس التراث الإسلامي وغيره ، ليتركوها بعد ذلك لأبنائهم جيلا بعد جيل . إذن فلقد استطاع الخالدي أن يرث عن آبائه اسما عريقا ومكانة عظيمة و مكتبة ثرية خولت له الظفر بهذا النوع من التعليم .

إضافة إلى هذا فقد لعبت توجيهات شيخ الإسلام عرياني أفندي زادة دورا كبيرا في تكوين هذه الشخصية ، فقد حثه هذا الأخير على مواصلة التعليم و شجعه على طلب العلم و قد لاقت نصيحة شيخ الإسلام أذنا صاغية لدى الخالدي و عمل فعلا بنصيحة أستاذه ، وكانت نتيجة ذلك أن تكونت هذه العبقرية العلمية التي بدت آثارها واضحة في مجموع كتبه التي تركها لنا، منها ما هو مطبوع مثل :رسالة في سرعة انتشار الدين المحمدي و في أقسام العالم الإسلامي ،المقدمة في المسألة الشرقية ، رسالة في ترجمة برتلو العالم الكيماوي ،فكتور هوغو (مقالة) ،تاريخ علم الأدب عند الإفرنج و العرب و فكتور هوغو ، حكمة التاريخ (مقالة) ، الإنقلاب العثماني و تركيا الفتاة ، رسالة في علم الكيمياء عند العرب، و منها ما هو مخطوط مثل : رحلة الأندلس ، علم الألسنة ، تاريخ الصهيونية ، تاريخ الأمة الإسرائيلية و علاقتها بالعرب و غيرهم ، كتاب في تراجم العائلة الخالدية، تاريخ الشرق وأمرائه.[16]

استطاع الخالدي أن يظفر بتعليم عصري عال ، فأتقن اللغة العربية والفرنسية و التركية ، كما درس العلوم السياسية و الإدارية و التاريخ و الآداب الشرقية في جامعة السوربون و أقام في فرنسا حوالي ثلاثة عشرة سنة احتك خلالها بالحياة الثقافية و الاجتماعية ، فكانت نتيجة ذلك العديد من الكتب والدراسات و المقالات في مختلف العلوم [17]، يهمنا منها كتابه الفريد في عصره " تاريخ علم الأدب عند الإفرنج و العرب و فكتور هوغو " الذي تجلى فيه المنهج المقارن بأوضح صورة . هذا المنهج الذي لم يسبق للعرب أن عرفوه و طبقوه في دراساتهم ، اللهم إلا تلك "الجهود المشرقة لكتاب سبقوه إلى الإتصال بالثقافة الأجنبية و محاولة تقريبها إلى القارئ العربي مستعينين أحيانا بعقد المقارنات والموازنات الفكرية والأدبية والفنية مما قربهم كثيرا من حقل الأدب المقارن" [18] يأتي على رأسهم رفاعة رافع الطهطاوي (1801-1873) الذي وضع كتابا في تاريخ مدينة باريس ، فوصف أحوال الفرنسيين و نظامهم السياسي و دستورهم ، ثم وصف المساكن و المآكل و المشارب و العادات و الملابس و تقدمهم في الفنون والصنائع موازنا كل ذلك بما عند العرب [19]، وقد طبع الطهطاوي كتابه هذا والموسوم " بتخليص الإبريز في تلخيص باريز " في بولاق سنة 1834 ، وانتظر

أعواما طوالا حتى نشر في بيروت سنة 1867 قصته الثانية " مواقع الأفلاك في وقائع تلماك "، وهي ترجمة لقصة تلماك للكاتب الفرنسي فينلون. إلا أن ما كتبه الطهطاوي لا يرقى إلى الأدب المقارن بل كان عمله عبارة عن موازنات بين الظواهر الأدبية و اللغوية في العربية و الفرنسية ، ومن بين الموازنات التي قام بها هذا المؤلف في كتابه "تخليص الإبريز في تلخيص باريز " موازنته بين بعض الأنواع الأدبية ، موضوع الشعر ، اللغتين العربية و الفرنسية ، ثم جاء علي مبارك الذي واصل هذا المنهاج القائم على الموازنات في كتابه " علم الدين " فقد أكثر فيه من الموازنات و المقارنات ، وقد طالب هو نفسه جمهور القراء إذا ما أرادوا نقد الأمور أن يعملوا على مقارنتها ، و الموازنة بينها ، وقد أعلن علي مبارك صراحة أن هدفه في كتابه هذا هو المقارنة بين الأحوال المشرقية والأوربية [20]،و إن كان لا يريد بها المعنى الإصطلاحي المتعارف عليه الآن في مجال الأدب المقارن ، ويبقى مجهود كل من الطهطاوي و علي مبارك مجهودا غايته الأولى هي الإصلاح فهما يوازنان قصد إبراز العناصر الحضارية المشتركة ، ثم إصلاح المجتمع عن طريق الدعوة إلى تحقيق هذه العناصر الحضارية والعمل على إبرازها .

بعدهما جاءت كوكبة أخرى اقتربت من هذا المجال (المقارنة) على رأسهم نجيب الحداد (1867-1899) في مقالته " مقابلة بين الشعر العربي والشعر الإفرنجي " و موضوع هذه المقالة صادر عن إعجاب نجيب الحداد بالثقافة الفرنسية و آدابها ، هذا الإعجاب الذي جعله يترجم العديد من النصوص الأدبية والروايات و المسرحيات التي قاربت العشرين مسرحية ، فقد استعرض نجيب الحداد الشعرين العربي والفرنسي و مراحلهما موازنا بينهما و مستخرجا أهم الفروقات بينهما ، و الملاحظ أن هذه المقالة رغم ما تحمله من بذور المقارنة إلا أنها بعيدة نوعا ما عن هذا المجال ؛ لأن غرض صاحبها لم يكن المقارنة بمفهومها الشائع الآن ، وإنما أراد المقارنة لتعريف شعبه و إعطائه فكرة عن الأدب الفرنسي ، مبينا ضيق آفاق الشعر العربي الإبداعية مقارنة بآفاق الشعر الإفرنجي ، داعيا شعراء العرب إلى الإقتداء بالشعر الإفرنجي، و"مع ذلك فإن هذه المقالة إلى جانب مقالات أخرى فيها حكايات و ملح و قصائد معربة عن الفرنسية ، وكلها ذات مغزى ترمي إلى غرض أدبي و اجتماعي " [21]استطاعت أن تعطي دفعا جديدا إلى النهضة العربية و أن تفتح مجالا أرحب للإطلاع على آداب الغرب و خاصة الفرنسي منه .

ويتوج هؤلاء جميعا سليمان البستاني الذي استطاع أن يقيم بناء شامخا في ميدان الأدب المقارن بالدراسة الواسعة التي قام بها حول الإلياذة بعد أن عربها شعرا .

ومن المعروف أن سليمان البستاني أنجز ترجمة الإلياذة شعرا عام 1895، وانتهى من إثبات شروحها و حواشيها عام 1902 و كتب مقدمتها التي بلغت مئتي صفحة في أواخر سنة 1903 واضعا بذلك اللبنة الأولى في بناء الأدب المقارن ، ولكن من المعروف أيضا ، ومما لا تشير إليه دائما الكتب العامة في الأدب والنقد أن روحي الخالدي نشر كتابه " تاريخ علم الأدب " على شكل مقالات منجمة في الهلال بين عام 1902-1903 ، وبذلك يكون البستاني و الخالدي فرسي رهان من خلال المقياس التاريخي على الأقل .(22)

و نستطيع أن نقر بريادة الخالدي في هذا المجال (الأدب المقارن) على سليمان البستاني رغم أنهما متفقان من ناحية السبق الزمني في هذا المجال لأسباب لعل أهمها :

1 – أن سليمان البستاني عندما ترجم الإلياذة لم يكن في نيته المقارنة ، و إنما كان غرضه تعريف العرب بعمل أدبي أجنبي كانوا يجهلونه (23)، لكنه عندما انتهى من الترجمة فطن إلى أن بني جلدته لا يمكن لهم أن يفهموا هذا العمل إلا إذا عرفوا تاريخ الأدب الغربي، واضطر سليمان إلى وضع مقدمة للإلياذة يعرف فيها العرب بالآداب الغربية مع إعطاء نبذة عن الأدب العربي و مقارنته بالأدب الغربي.

2 – من خلال المقياس الخاص بالأدب المقارن يظهر روحي الخالدي أقرب بكثير إلى مفهوم هذا المصطلح من سليمان البستاني ، فقد أظهر روحي الخالدي وعيا نظريا لمفهوم التأثير و التأثر و تبادل الأفكار و التقنيات مما نراه عند الكثيرين من معاصريه ، وبذلك يقترب من المفهوم الأصلي للأدب المقارن بوصفه تاريخ العلاقات الأدبية الدولية في لغاتها المختلفة ، متأثرا في ذلك بأعلام الأدب المقارن الذين عاصرهم ، ولا شك أنه قد اطلع على أفكارهم و كتبهم ، فقد عاش الخالدي في فرنسا في فترة كانت فيها الدراسات التاريخية على يد لانسون ، والدراسات المقارنية فيما بعد في أوج ازدهارها و تألقها ، وقد نبغ في هذا المجال (الأدب المقارن) في تلك الفترة : لانسون ،جوزيف تيكست، لويس بيتز، و غيرهم.

لذا ، فالخالدي أقرب إلى الريادة من سليمان البستاني خصوصا و أنه عاش في فرنسا منشأ هذا العلم و بين مؤسسيه و أقطابه الذين لا بد أن يكون الخالدي قد اتصل بهم سواء من قريب (مباشرة) أو من بعيد عن طريق كتبهم .

وإلى جانب البستاني هناك اسم آخر نسبت إليه الريادة و هو "قسطاكي الحمصي " الحلبي (1858 –1941) في كتابه " منهل الوراد في علم الإنتقاد". (24)لقد حاول الحمصي من خلال هذا الكتاب تأليف كتاب تعليمي في نظرية النقد واضعا بذلك قواعد ثابتة له ،يسهل على الراغبين في هذا الفن استيعاب قواعده و أسسه في

وقت قياسي، ويتبعها كل ناقد يريد ممارسة النقد على أي نص، ومن الوهلة الأولى تظهر هذه الفكرة مستحيلة التحقيق، ففكرة الحمصي حملت في طياتها أسباب فشلها ؛" لأن ذلك شيء لم يؤلف فيه كتاب، ولا شيد له أحد من علماء الغـرب، وأنهـم يعتبرونه من الفنون الذوقية التي لا تخضع لقواعد علمية " (25) +

وقد حاول الحمصي أن يعقـد المقارنـات بـين الأدب العربـي و الأدب الغربي، على طريقة سليمان البستاني ، ولكنه لم يقترب من مفاهيم التأثير و التأثر أو التواصل الثقافي أو تشابه الإنتاج الأدبي بفعل تشابه المجتمعات . وتبقى محاولة الحمصي محصورة في إطار نقدي بحت، اللهم إلا تلك المقارنة التي نشـرها فـي الجزء الثالث من كتابه " منهل الوراد " و الذي صدر في حلب سنة 1935 بعنوان: " الموازنة بين الألعوبة الإلهية و رسالة الغفران ."

ويبقى الخالدي في الأخير أمام كل هذه الجهود المبكرة في الميدان متربعا على عرش ريادة الأدب المقارن في الوطن العربي ، حيث فاز بقصب السبق فيه زمنيا و علميا وهذا من خلال كتابه " تاريخ علم الأدب عند الإفرنج و العرب " والذي لا يسعنا المقام في هذا البحث لدراستـــه و عـرض مادته على أن يكون هذا العمل في مقالات أخرى .

الهوامش:

[1] – ناصر الدين الأسد ، محمد روحي الخالدي رائد البحث التاريخي الحديث في فلسطين ، معهد البحوث و الدراسات العربية ، القاهرة 1970 ،ص36 .

[2] – المرجع نفسه ص29 .

[3] –المصعب بن عبد الله الزبيري ، نسب قريش ، ط دار المعارف ، مصر ، دت ص 328.

[4] – ابن حزم ، جمهرة أنساب العرب ، تحقيق عبد السلام هارون ، دار المعارف ، مصر 1962 ص147 .

[5] – ناصر الدين الأسد ، محمد روحي الخالدي ص 33 .

(6) – المرجع نفسه ص34 .

(7) – مقدمة حسام الدين الخطيب لكتاب روحي الخالدي ، تاريخ علم الأدب عند الإفرنج و العرب و فكتور هوغو ، اتحاد الكتـــاب و الصحفيين الفلسطينيين ،ط4 ، دمشق ،1985 ص9.

(8) – من رسالة : د. ناصر الدين الأسد ، جوابا عن رسالة مني ، عمان في :4 شوال 1414 – 16 مارس 1994 .

(9) محمد روحي الخالدي ، رسالة في سرعة انتشار الدين المحمدي و في أقسام العلم الإسلامي ، مطبعة البلاغة ، طرابلس الشام سنة 1314 هـ .

(10) – محمد روحي الخالدي ، أسباب الإنقلاب العثماني و تركيا الفتاة ، أصدق تاريخ لأعظم انقلاب ، مطبعة المنار ، شارع درب الجماميز ، مصر ، سنة 1326 هـ .

(11) – من مراجع ترجمة روحي الخالدي :

- إسحاق موسى الحسيني ، النقد الأدبي المعاصر في الربع الأول من القرن 20 ، معهد البحوث و الدراسات العربية القاهرة سنة 1967 ص33 .
- ناصر الدين الأسد ،محمد روحي الخالدي ، ص25 و ما بعدها .
- كامل السوافيري ، الأدب العربي المعاصر في فلسطين ، دار المعارف ،مصر 1979 ص275 .
- خير الدين الزركلي : الأعلام ، المجلد الثالث ، ج3 ، دار العلم للملايين ، بيروت ط7 سنة 1986 ص 34 - 35 .

(12) – خليل طوطح وبولس شحادة ، تاريخ القدس و دليلها ، مطبعة مرآة الشرق ، القدس ، سنة 1920 ص 66 وما يليها ،نقلا عن ناصر الدين الأسد ، محمد روحي الخالدي ، ص39.

(13) – المرجع نفسه ص42 .

(14) – المرجع نفسه ص 43 .

(15) – الهلال عدد أول نوفمبر 1908 ص67-83 .

(16) – راجع كتاب ، محمد روحي الخالدي ،ص47 و ما يتبعها .

- مجلة الهلال : ج8 من السنة العاشرة سنة 1902 .
- " " ج 14 من " " " " .
- " " ج 2من السنة السابعة عشر سنة 1908 .

(17) – عبد المجيد حنون ، اللانسونية و أبرز أعلامها في النقد العربي الحديث ، رسالة دكتوراه ، معهد اللغة العربية وآدابها جامعة الجزائر سنة 1991 ص 30 .

(18) – مقدمة حسام الدين الخطيب لتاريخ علم الأدب ص10 .

(19) – رفاعة الطهطاوي ، تخليص الإبريز في تلخيص باريز ، سلسلة الأنيس ،الجزائر سنة 1991 .

(20) – علي مبارك ، علم الدين ، مطبعة جريدة المحروسة ج1 ، الإسكندرية 1982 ص8 ، نقلا عن عطية نصر عامر ، تاريخ الأدب المقارن في مصر ، أعمال الملتقى الولي حول الأدب المقارن عند العرب ص20 .

(21) – مارون عبود ، رواد النهضة الحديثة ، دار الثقافة ، بيروت 1966 ص 194 .

(22) – مقدمة حسام الدين الخطيب ص 12 .

(23) – إلياذة هوميروس ، ترجمة البستاني ، مطبعة الهلال عام 1904 .

(24) – قسطاكي الحمصي ، منهل الوراد في علم الإنتقاد ،ج1 مطبعة الأخبار ، القاهرة ، 1907 .

(25) - المرجع نفسه ص5 – 6 .